صلاح الدين واليهود

للدكتور عطية القوصى
المدرس بكلية الآداب جامعة القاهرة
(فرع الخرطوم)

شهد المؤرخون المسلمون وغير المسلمين للسلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب بالتسامح الدينى وعدم التعصب مع غير المسلمين . ويُرجع البعض هذا التسامح إلى أنه جزء من السياسة الحكيمة التى وضعها السلطان لإصلاح حال اقتصاد مصر وقت أن تولى حكمها ، وذلك بالاستفادة من جهود جميع العناصر العاملة فى الدولة بغض النظر عن أديانها لمواجهة المصاعب المالية التى نجمت عن اضطراب الأحوال فى مصر فى أواخر عهد الفاطميين[1] . وسواء كان هذا الرأى صحيحاً أم مجانباً للصواب فإنه من الثابت أن صلاح الدين كان يتحرى العدالة ويطبق تعاليم الشرع فى جميع معاملاته ويتوخى رضاء الله فى تعامله مع رعايا دولته سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين[2] .

ولم تقتصر عدالة صلاح الدين على المسيحيين ولكنها شملت أيضاً اليهود الذين كانوا فى أسوأ حال حين تولى السلطان حكم مصر والشام . ولقد تنفس اليهود الصعداء على يد هذا الحاكم المسلم الذى سمح لهم بالعودة إلى القدس وفلسطين وبحرية العمل والعبـــادة فى أرض هذه البلاد المقدسة . وكان الصليبيون قد طردوا اليهود من فلسطين وحرموا عليهم دخول القدس غداة نجاحهم فى حملتهم الصليبية الأولى وفرضوا عليهم هذا الحظر الذى سبق أن

فرضه عليهم أباطرة الرومان تيتوس وهادريان[٣] . وفقد اليهود بذلك امتياز الحياة فى المدينة المقدسة وحرية التنقل والمعيشة فى مدن فلسطين وهو الامتياز الذى حصلوا عليه من المسلمين غداة الفتح الإسلامى لبلاد الشام[٤] .

وتحكى لنا المصادر العربية والأوربية عن المعاملة القاسية التى عامل بها الصليبيون سكان فلسطين عامة وبيت المقدس خاصة مسلمين ومسيحيين ويهود. فحين استولى «جودفروا دى بلوين» قائد الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس (١٥ يوليو ١٠٩٩) أقام فيها حمام دم لأهل الملل الثلاثة ، وانطلق رجاله فى شوارع المدينة يقتلون كل من يصادفهم من أهلها من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز . واستمرت المذبحة طوال يوم الفتح وطوال الليل[٥] . وبالنسبة لليهود فلقد أحرق الصليبيون عليهم معبدهم الذى اجتمعوا فيه فمات منهم عدد كبير وأُسر من فر من النار وسيقوا ليباعوا فى أسواق النخاسة ، وروى أن ثلاثين يهودياً بيعوا بدينار واحد[٦] . وبرر « دى بلوين » قتله وتحريقه لليهود بأنه ينتقم منهم لقتلهم المسيح[٧] .

ولقد عانى اليهود من الاضطهاد الصليبى فى كل مدن فلسطين ، وشملهم القتل والأسر فى يافا وفى حبرون (الخليل) وحيفا وجبل الكرمل وقيسارية[٨] . ونتيجة لهذه المذابح الصليبية هرب من تبقى من اليهود من مدن فلسطين ناجياً بحياته إلى أماكن أكثر أماناً حتى كادت مدن فلسطين أن تخلو تماماً من اليهود ، وذكر الرحالة اليهودى « بنيامين التطيلى » الذى زار فلسطين فى سنة ١١٧٠م أنه رأى مدن فلسطين خالية من اليهود أو تكاد . فذكر أنه لم ير فى يافا سوى يهودياً واحداً وفى بيت المقدس أربعة يهود يعملون بالصباغة[٩] . وإن كان قد ذكر فى موضع آخر من كتاب رحلته أنه شاهد مائتى يهودى عند برج داود فى أطراف القدس يشتغلون

بالصباغة[١٠] . وفى مدينة الرملة ثلاثة يهود فقط . وروى أنه مر على بعض مدن فلسطين فلم يشاهد بها يهودياً واحداً[١١] . وظل شتات اليهود وتحريم سكناهم مدن فلسطين وخاصة القدس قائماً حتى فتح صلاح الدين لهذه المدينة. فبعد أن فتح صلاح الدين القدس (يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ /٢ أكتوبر ١١٨٧ م) سمح لليهود بالعودة إليها ، وأظهر من التسامح والعفو مع أهل المدينة ما جعل المؤرخين يذكرونه بالثناء والتقدير[١٢] . ولقد أمن سكان المدينة جميعهم على أرواحهم ووزع جنوده فى شوارع المدينة وأحيائها ليحفظوا الأمن والنظام بها ويحفظوا أرواح سكانها ، فلم يقع حادث واحد من حوادث السرقة والنهب التى تلازم الفتح عادة[١٣] . ولم يشأ صلاح الدين أن يفعل مع المسيحيين واليهود مثلما فعل الصليبيون الأول من ضروب التوحش والإبادة التى وقعت على سكان القدس[١٤] . فلقد كانت رحمته وعطفه على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين فى الحملة الصليبية الأولى[١٥] .

وحين شعر اليهود بسماحة أخلاق هذا الفاتح العظيم وعدم تعصبه الدينى أخذوا فى العودة من مخابئهم إلى أرض فلسطين والقدس ابتداءاً من سنة ١١٩٠م. وكتب الشاعر الأديب اليهودى « يهودا الحريزى » الذى زار مدينة القدس بعد ربع قرن من عودتها إلى يد صلاح الدين (حوالى سنة ١٢١٦م) عن ذلك الأمر يقول :

« ... ولكن لماذا لم يسمح لليهود بالبقاء فى فلسطين حين كانت فى قبضة الصليبيين المسيحيين؟ ... قيل أن السبب فى ذلك اننا المتسببون فى قتل إلههم. وأنذروا لذلك بأنهم سوف يأكلوننا أحياءاً إذا تمكنوا منا . لكن الله أرسل الملك العادل صلاح الدين وزوده بالحكمة والشجاعة فسار بجيش من مصر وحاصر القدس وأسقط الله بعونه المدينة فى يده . وعندئذ أرسل السلطان منادياً ينادى فى أرجاء البلاد بأن يعود كل سليل من سلالة إبراهيم إلى القدس من العراق ومصر ومن كل الأماكن التى التجأوا إليها ... »[١٦] .

ولقد شهد على عدالة وتسامح صلاح الدين وحسن معاملته لليهود غداة فتحه بيت المقدس أكبر أعداء المسلمين زعيمهم « دافيد بن جوريون » ، فلقد أورد فى كتابه ما نصه[١٧] .

« لقد أصدر صلاح الدين نداءاً غداة فتحه للقدس يحث فيه اليهود صغاراً وكباراً وخاصة الهاربين من حكم الصليبيين أن يعودوا إلى بيت المقدس . وفى خلال سنوات قليلة من حكم هذا السلطان العادل أعيد المجتمع اليهودى فى القدس وتجمع اليهود من كل صوب وحدب عائدين إلى المدينة المقدسة . ولقد عاد مع هؤلاء العائدين عدد من كبار علماء اليهود وربانيتهم منهم ثلاثمائة من فرنسا وانجلترا وأسبانيا وسكنوا مدينة القدس . ولقد ذكر مؤرخ يهودى أن الملك العادل أخا صلاح الدين استقبل فى سنة ١٢١١ هؤلاء العلماء اليهود الثلثمائة استقبالا طيباً وسمح لهم ببناء مدارس ودور عبادة يهودية . ويأتى على رأس هؤلاء الربانية الرابيين الفرنسيين شمشون بن إبراهيم الشنازى ويوناتان اللونلى . ولقد استمرت هجرة العلماء اليهود الغربيين إلى بيت المقدس وفلسطين طوال عهد صلاح الدين وعهد أسرته من بعده » .

وبناءاً على هذه العودة سمح السلطان صلاح الدين لليهود فى مصر والشام بحرية العمل كما سمح لهم بحرية العبادة . وبذلك عاود التجار اليهود نشاطهم التجارى القديم وساهموا بنصيب وافر فى التجارة الداخلية وفى تجارة المرور بين الشرق والغرب . ولم يضع السلطان الأيوبى أية قيود على اشتغالهم فى التجارة ومساهمتهم فى عودة الرواج الاقتصادى للبلاد[١٨] . فساوى بينهم وبين بقية التجار غير المسلمين فى دفع المكوس . وكان يؤخذ منهم العشر فى ميناء الإسكندرية ودمياط على البضائع التى كانوا يجلبونها من بلاد أوربا إلى مصر مرة كل عام[١٩] . ثم تقرر أن يؤخذ منهم ومن سائر التجار الأجانب الخمس — وهو ضعف العشر — عن كل ما يصل لهم مرة كل عام[٢٠] . واستمر أخذ الخمس من تجار اليهود ومن غيرهم من التجار الأجانب طوال

عهد صلاح الدين[٢١] وهنالك وثيقة من وثائق الجنيزة – لم تنشر بعد – وهى عبارة عن رسالة وردت من الأسكندرية إلى الفسطاط يمتدح فيها صاحبها التاجر اليهودى السلطان صلاح الدين لإنقاصه المكوس عن اليهود[٢٢] .

وكان اليهود يدفعون الجزية السنوية المقررة عليهم شأنهم فى ذلك شأن غير المسلمين[٢٣] . وكان تجار اليهود الذين يعملون فى تجارة الشرق يدفعون إلى جانب المكوس المفروضة على بضائعهم ما عليهم من الجزية السنوية حتى أثناء تغيبهم فى رحلات تجارة الشرق[٢٤] . وقد جاء فى وثائق الجنيزة أن هذه الجزية كانت تسمى فى عهد الأيوبيين (جعلية) وأنها كانت تؤديها جماعات التجار اليهود حتى أثناء تواجدهم فى الهنـــد وبلاد الشرق الأدنى . وشاهد على ذلك أن تاجراً يهودياً من تجار الهند تغيب فى الهند تسع سنوات ثم مات هناك فدفع عنه أخوته فى مصر جعلية السنين التسعة . وهنالك خطاب من خطابات الجنيزة أرسله أخ من الأسكندرية لأخيه الذى يتاجر فى الهند يطلب منه أن يرسل ما عليه من جعلية . وعند وصول الأخ تاجر الهند إلى الأسكندرية سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م – بعد غياب أربع سنوات – أرسل إلى صديق له فى الفسطاط يطلب منه أن يخبر المحصل بغرق سفينته ورجائه أن يرفع عنه جعلية السنوات الأربع . وقال له فى خطابه ما نصه : « أوعده بنصف دينار أو دينار له وذكره بأنى يوسف صاحب المخزن الواقع تحت الكنيسة المعلقة »[٢٥] .

ونتيجة العمل فى تجارة الشرق وبفضل رأية التسامح التى رفعها السلطان صلاح الدين كون بعض تجار اليهود ثروات طيبة وأحرزوا مكانة هامة فى المجتمع المصرى وفى البلاط السلطانى . ولقد قرب صلاح الدين أطباء اليهود إليه وجعلهم أطباءه الخصوصيين بفضل نبوغهم فى علم الطب والمداواة . ورقى السلطان أحدهم إلى منصب القاضى (الناجد) ورفع مكانته وارتفعت

مكانة اليهود معه فى مصر[٢٦] ، فى ذات الوقت الذى ارتفعت فيـــه مكانة اليهود فى العراق[٢٧] وحصل كبيرهم على لقب رأس الجالوت[٢٨] .

ومن الأطباء اليهود الذين خدموا البلاط السلطانى فى عهد صلاح الدين وفى عهد أسرته من بعده نجد أسماءاً لامعة تحدث عنها المؤرخ الطبيب ابن أبى أصيبعة المعاصر لدولة الأيوبيين فى كتابه « عيون الأبناء فى طبقات الأطباء »[٢٩] .

من هؤلاء : * « الطبيب يوسف بن أبى ســـعيد بن خلف السامرى » المعروف بشمس الحكماء . وكان فى خدمة السلطان صلاح الدين وتوفى بدمشق سنة ٦٢٤ هـ[٣٠] .

* الطبيب أبو المعالى تمام بن هبة الله بن تمام » وكان طبيباً يهودياً غزير العلم وافر المعرفة مشهوراً فى الدولة موصوفاً بالفضل مشكوراً بالمعالجة . وكان مقيماً بفسطاط مصر وأسلم جماعة من أولاده . كان فى خدمة السلطان صلاح الدين وكان ذا حظوة فى أيامه . وقدم بعد ذلك لأخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب وله من الكتب : تفاليق ومجربات فى الطب »[٣١] .

* « الطبيب الشيخ الموفق شمس الرياسة أبو العشائر هبة الله بن زين بن جميع الإسرائيلى » . وكان من الأطباء المشهورين والعلماء المذكورين ، متفنناً فى العلوم جيد المعرفة بها ، كثير الإجتهاد فى صناعة الطب . ولد ونشأ بفسطاط مصر وخدم السلطان صلاح الدين ، وكان رفيع المنزلة عنده عالى القدر نافذ الأمر يعتمد عليه فى صناعة الطب . وكان لإبن جميع مجلس عام للذين يشتغلون عليه بصناعة الطب وكانت له فيه كتب كثيرة[٣٢] .

* « الطبيب أبو البيان بن المدور الملقب بالسديد » . خدم السلطان

صلاح الدين وكان يعتمد على معالجته . ولقد عمر هذا الطبيب حتى أصابه الضعف والوهن بسبب كبر سنه . فأطلق له السلطان فى كل شهر أربعة وعشرين ديناراً مصرية تصل إليه فى بيته دون أن يكلف بخدمة . وبقى على تلك الحال نحو عشرين سنة . وعاش أبو البيان ثلاثا وثمانين عاماً ، وخدم بعد صلاح الدين الملك العادل أبا بكر بن أيوب وتوفى سنة ٥٨٠ هـ بالقاهرة[٣٣] .

• « الطبيب الموفق بن شوعة » . خدم السلطان صلاح الدين وعلت منزلته عنده وتوفى بالقاهرة سنة ٥٧٩ هـ[٣٤] .

ويأتى على رأس هؤلاء الأطباء الطبيب العالم الفيلسوف «موسى بن ميمون» الملقب بالرئيس الذى يقول عنه ابن أبى أصيبعة أنه كان أوحد زمانه فى صناعة الطب وفى أعمالها ، متفنناً فى العلوم وله معرفة جيدة بالفلسفة . وكان السلطان الناصر صلاح الدين يرى له وكذلك ولده الملك الأفضل على ، وكان له من الكتب : « اختصار الكتب الستة عشر لجالينوس » . « مقالة فى البواسير وعلاجها » . « مقالة فى تدبير الصحة » صنفها الملك الأفضل على بن الملك الناصر صلاح الدين . « مقالة فى السموم والتحرز من الأدوية القتالة » . « كتاب شرح العقاد » و « كتاب كبير على شرح اليهود »[٣٥] .

وإذا كانت شخصية موسى بن ميمون الطبية قد أحرزت مكانة هامة فى المجتمع المصرى فى عهد صلاح الدين فإن هذه الشخصية كان لها دور عظيم فى حياة كل اليهود منذ عهده حتى الآن . ذلك لأن هذا الرجل يعتبر المؤسس الحقيقى للديانة اليهودية وواضع أسس هذه العقيدة ومثبت أركان الإيمان بها . ولقد رفعه اليهود إلى مرتبة النبوة وأطلقوا عليه النبى موسى الثانى[٣٦] . ولذلك فإن اليهود الآن يدينون للسلطان المسلم صلاح الدين بإرساء قواعد

دينهم بفضل روح التسامح الديني التي ظللت عهده والتي أعطت المناخ المناسب لنبوغ علامة اليهود موسى بن ميمون الذي كانت له الخطوة والمكانة في بلاط السلطان .

وكان موسى بن ميمون قد التجأ إلى مصر في عهد صلاح الدين بعد هروبه مع أسرته من المغرب[٣٧] ، واحترف مهنة الطب فيها . ولم تمض سنوات قليلة على استقراره بها حتى ذاع صيته وأصبح له السيادة فيها[٣٨] . واختير الطبيب الأول لوزير صلاح الدين « القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني » الذي أوصله إلى البلاط السلطاني وغمره بامتيازات عديدة[٣٩] . وكان موسى قد حصل على نفس المكانة عند « ريتشارد قلب الأسد » في عسقلان وعرض عليه ريتشارد أن يبقى معه وأن يكون طبيبه الخاص . لكن موسى لم يكن يأمن غدر الصليبيين وفضل العيش تحت راية حكم صلاح الدين الذي كافأه مقابل ذلك واعطاه لقب (رأس الأمة) تشريفاً له وتعظيماً[٤٠] ، وأصبح موسى بن ميمون أعظم شخصية يهودية في زمانه حين تولى وظيفة (الناجد) — رئيس القضاة اليهود[٤١] . وصارت تصـــله رسائل اليهود من كل العالم تسأله الفتوى وتطلب منه الحل لمشاكلها الدينية .

ولقد أتاحت الزعامة التي أحرزها موسى بن ميمون على المجتمع اليهودي الفرصة له لإعادة تنظيم العقيدة اليهودية وإعادة ترتيب التلمود واستخلاص الأحكام الشرعية والفتاوى منه وتخليصها مما يتخللها من استطرادات وحكايات وأساطير[٤٢] واستطاع وسط زحمة العمل أن يؤلف كتبه الدينية التي كانت سر شهرته وعظمته بين يهود العالم . ولقد أراد في هذه الكتابات أن يوفق بين التوراة والتلمود وأن يشرح الحقائق الرئيسية للديانة اليهودية في العقيدة والتشريع . وأراد أن يبسط للناس التعاليم اليهودية بعد أن استعصى فهمها على اليهود بسبب كثرة التضارب في كتبهم المقدسة[٤٣] .

وكتب موسى بن ميمون ، بعد وصوله مصر بثلاث سنوات (١١٦٨م) أهم أعماله وهى « المشنا المبسطة » ، وكانت أول محاولة لوضع مشنا مبسطة للعامة . وفى سنة ١١٨٠ م أخرج عمله الثانى الكبير وهو « مشنا توراة » (إعادة الشريعة) والذى عُرف بالتوراة الثانية عند اليهود ، ويعد من أبرز الكتب الأدبية فى العالم . ولقد قسمه إلى أربع عشرة جزءاً أوضح فيها التعاليم اليهودية ببساطة وصاغ فيها كل أحكام التلمود والمشنا والتوراة بأسلوب عبرى سهل واضح دقيق[٤٤] .

كذلك أخرج كتابه الفلسفى « دلالة الحائرين »[٤٥] الذى مزج فيه بين التعاليم اليهودية وفلسفة أرسطو . ولقد تأثر موسى بن ميمون فى كتاباته بنتائج علم التوحيد وعلوم الكلام عند أئمة المسلمين وبفلسفة الأشاعرة[٤٦]. وحاول ابن ميمون فى كتاباته أن يقرب بين طائفتى الربانية والقرائين اليهوديتين اللتين كانت لهما مجتمعاتهما فى القاهرة والاسكندرية ودمشق وأماكن أخرى[٤٧] .

وكما تفانى موسى بن ميمون فى خدمة ديانته وبذل كل الجهد لتوضيح العقيدة اليهودية للمواطن اليهودى العادى ، فلقد تفانى فى خدمة الحاكم المسلم الذى أعطى له حرية الحركة والتفكير على أرض مصر . فلقد عاش موسى بن ميمون حياته فى عمل متواصل دون كلل أو ملل . ولقد تحدث عن ذلك الرحالة « عبداللطيف البغدادى » الذى زار مصر حوالى سنة ١١٩٩ م وذكر ذيوع صيت ابن ميمون وشهرة ابنه ابراهيم[٤٨] . وفى خطاب أرسله ابن ميمون إلى أحد أصدقائه أعطانا صورة لبرنامج عمله اليومى فكتب يقول :

« إنى أعيش فى الفسطاط بالقرب من قصر السلطان المتواجد بالقاهرة والذى لا يبعد عن مقر إقامتى كثيراً . وإنى أتواجد فى كل صباح فى حضرة السلطان حيث أقوم بمعالجة قواد السلطان وأتباعه . وأظل هناك ولا أعود

إلى الفسطاط قبل الظهر بأى حال من الأحوال . وعند عودتى للفسطاط أجد فى انتظارى كثيراً من الناس مسلمين ويهود واقفين أمام دارى . فأنزل من على حمارى وأغتسل وأعتذر للناس عن تأخرى وأطلب منهم الإنتظار قليلا حتى أتناول لقيمات قليلة . ثم أعود لمعالجة المرضى وأكتب لهم العلاج . ويظل الناس من حولى فى ذهاب ورواح حتى المساء وأظل فى خدمتهم حتى الثانية صباحاً ، أما يوم السبت فأقوم بالخدمة الدينية حيث يزورنى كبار رجالنا اليهود الذين أعطيهم إرشاداتى لباقى الأسبوع »[٤٩] .

وتوفى موسى بن ميمون سنة ٦٠٥ هـ/١٢٠٤ م فى السبعين من عمره دون مرض ولكن بسبب الإرهاق الشديد والعمل المتواصل فبكاه اليهود والمسلمون وأقاموا الحداد على وفاته ثلاثة أيام[٥٠] . وحمل جثمانه إلى فلسطين ودفن فى طبرية تنفيذاً لوصيته[٥١] ، وأصبح قبره محجاً لليهود[٥٢] .

ولقد خلف موسى فى منصبه الدينى ووظيفة الطب إبنه ابراهيم[٥٣] وعمل ابراهيم فى خدمة الملك العادل ثم الملك الكامل وظل يتردد على البيمارستان الناصرى بالقاهرة ويعالج المرضى فيه[٥٤] . واحتفظ ابراهيم بالمكانة التى كانت لأبيه فى البلاط السلطانى . كما احتفظت أسرة موسى بن ميمون وسائر جماعات اليهود بالمكانة التى أحرزوها فى مصر وذلك بفضل سياسة التسامح الدينى التى وضعها السلطان صلاح الدين وسارت عليها أسرته من بعده .

الحواشى

(١) Ehrenkreutz : Contributions to the knowledge of the Fiscal administration of Egypt in the Middle Ages, [BSOASU, V, XVI, Part 3, London 1954, p. 514].

(٢) Goitein : Jews and Arabs, their contacts through the Ages, New York 1955; p. 72.

(٣) فى سنة ٧٠ م هدم الامبراطور الرومانى تيتوس هيكل اليهود وقام بقتل وطرد اليهود من فلسطين والقدس . كذلك تكرر الأمر مع اليهود فى سنة ١٣٥ م حين فشلت الثورة التى قاموا بها فى فلسطين ضد الرومان فى عهد الامبراطور هادريان فى الفترة ما بين ١٣٢ — ١٣٥م وهى الثورة التى عرفت باسم ثورة باركوكبا (ابن النجوم) وكانت آخر ثوراتهم فى فلسطين . وبعد أن أخمد القائد يوليوس سيفروس قائد هادريان هذه الثورة قام بهدم معبداليهود وأقام مكانه معبداً وتمثالا للاله جيوبيتر كابيتولينوس . كما قام هادريان بتغيير إسم مدينة القدس إلى إيليا كابيتولينا . كذلك غير كل الأسماء العبرية فى المدينة إلى أسماء رومانية . وأصدر هادريان قراراً يحرم على اليهود دخول مدينة القدس والعيش فيها وجعل الموت عقوبة من يقدم منهم على ذلك. وظلت القدس وسائر مدن فلسطين محرمة على اليهود حتى الفتح الإسلامى للشام .

[Eva Goldmann : A History of the Jewish Peopel, London 1967, p. 92]

(٤) ظل حظر دخول القدس على اليهود قائماً حتى استيلاء جيوش الخليفة عمر ابن الخطاب على القدس سنة ٦٣٧ م . وكان زعماء المسيحيين فى المدينة قد اشترطوا على الخليفة شروطاً يسلموه بعدها المدينة منها شرط منع اليهود من دخول المدينة . لكن الخليفة المسلم قبل كل الشروط ماعدا هذا الشرط معتذراً بأن القرآن حدد لأهل الكتاب ما لهم وما عليهم وليس فيه شىء يسمح بهذا . وبذلك أصبح لليهود الحق فى العودة والعيش فى المدينة المقدسة . ولم يجرؤ اليهود طوال أيام الخلفاء الراشدين وأوائل الأمويين على الاستيطان بالقدس ثم سمح لهم بعد ذلك منذ أيام الخليفة عبد الملك بن مروان .

وحين أصبحت الشام فى يد الفاطميين واستولوا على القدس ازدهرت بها الطائفة اليهودية لعطفهم على أهل الكتاب وبخاصة اليهود (حسن ظاظا : القدس مدينة الله أم مدينة داود ، الاسكندرية ١٩٧٠ ، ص ٣٠، ٣١) .

(٥) ستيفن رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٤٠٤ .

(٦) —David Ben-Gurion : The Jews in their land, London 1966, p. 214.

(٧) —Simon Dubnov : History of the Jews, V. IV, London 1968, p. 672.

(٨) —Ben-Gurion : Op Cit , p. 214.

(٩) —Ben-Gurion : Op. Cit., p. 215.

(١٠) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية ، جـ ١ ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٦٤ .

(١١) زار الرحالة اليهودى الأسبانى بنيامين التطيلى بلاد العالم الإسلامى فى الفترة ما بين ١١٧٠ — ١١٧٣م . فزار سوريا وفلسطين والعراق ووصل إلى بغداد . ونقل كل شيء سمعه أو رآه عن الأحداث السياسية آنذاك فى كل بلد زاره وخاصة فيما يتعلق بحياة اليهود فى هذه البلاد . كذلك قام هذا الرحالة برحلة أخرى إلى مصر بعد رحلته الأولى بحوالى ثلاثين عاماً وتحدث فيها عن أحوال اليهود فى مصر .

(Simon Dubnov : Op. Cit., IV, pp. 797-813)

(١٢) أبلغ ثناء لصلاح الدين فى هذه المناسبة ما أورده المؤرخ لين بول حين قال :

« إذا كان فتح بيت المقدس والمعاملة الطيبة التى أبداها صلاح الدين لسكانها هى الحسنة الوحيدة التى فعلها لكفاه بذلك أن يكون أعظم الفاتحين وأرقهم قلباً فى عصره بل وربما فى كل العصور » .

(Stanley Lane-Pool : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, Beirut 1964, p. 234).

(١٣) عارف العارف : تاريخ القدس ، القاهرة ١٩٥١ ، ص٧٨، ٧٩ .

(١٤) جوستاف ليبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٣٢٩ .

(١٥) رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص٧٥٣ .

— أورد المؤرخ الرحالة عبد اللطيف البغدادى أنه كان حاضراً وفاة السلطان صلاح الدين وأنه لمس حزن كل الناس على اختلاف مللها لوفاة هذا الحاكم العظيم وقال ما نصه :

: (لما مات صلاح الدين ما رأيت ملكا حزن الناس بموته سواه لأنه كان محبوباً يحبه البار والفاجر والمسلم والكافر — الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ز) .

(١٦) —Simon Dubnov : History of the Jews, IV, p 816.

(١٧) —The Jews in their land. London 1966, pp 217—218.

(١٨) —Ashtor : Saladin and the Jews, [Hebrew Union College Annual, V. 27 (1956), p. 326]

(١٩) المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ، جـ٢ ، ص١٢٠ .

(٢٠) القلقشندى : صبح الأعشى ، القاهرة ١٩١٥ ،جـ٣ ، ص٤٥٩ .

(٢١) قال ابن مماتى (قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص٣٢٦) .

« وربما بلغ قيمة ما يستخرج عما قيمته مائة دينار ما يناهز خمسة وثلاثين ديناراً وربما انحط عن العشرين ديناراً ويطلق على كليهما خمس . ومن الروم من يستأدى منه العشر إلا أنه لما كان الخمس أكثر كانت النسبة إليه أشهر » .

(٢٢) —Goitein : The Cairo Geniza as a source for the History of the Muslim Civilisation, [Studia Islamica, III, Paris 1955, p. 85].

—Goitein : Jews and Arabs, p. 72.

(٢٣) كانت الجزية تفرض على أهل الذمة فى مصر منذ اللحظة الأولى للفتح العربى لها . وقد وضع الخليفة عمر بن الخطاب نظاماً ثابتاً موحداً للجزية لتبعه العمال فى سائر الأمصار ، فقسم الجزية ثلاثة أقسام وفقاً لحالة الذمى الاجتماعية . فكان يؤخذ من الذكر الموسر أربعة دنانير وسدس فى كل سنة وعلى المتوسط ديناران وقيراطان وعلى الفقير دينار وثلث وأضيف إلى جزية كل شخص درهمان وربع عن رسم الغادى والمباشرين ، وكتب عمر إلى عماله بأن لا يوضع عليهم أكثر من ذلك وأن يخفف عمن عجز عن الدفع . وقد كانت العادة جارية باستخراج الجزية فى أول المحرم من كل سنة ثم صارت تستخرج فى أيام من ذى الحجة .

(القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص٤٥٧) .

(٢٤) كان اليهودى المكلف بالدفع يدفع جليته فى مسقط رأسه ويأخذ بذلك شهادة تفيد بدفعه تعرف بالبراءة .

[Goitein : The Coiro Géniza, SI, III, Paris 1955, p. 86].

(٢٥) —Goitein : Evidence on the Muslim Poll tax from non-muslim sources, [JESHO, V. VI, Part I, 1963, pp. 282— 283.

(٢٦) —Simon Dubnov : History of the Jews, V. IV, p. 816.

(٢٧) أثر انقسام الإسلام إلى خلافة ببغداد وأخرى بالقاهرة بقيام دولة الفاطميين فى مصر على تنظيم المجتمع اليهودى فى العالم الاسلامى فتزعم يهود العراق رأس الجالوت بينما ترأس يهود مصر رئيس آخر يلقب سرهساريم (أمير الأمراء) وكان يعين أحبار اليهود فى الشام ومصر أى فى حدود دولة الفاطميين .

ولا بد أن يكون الفاطميون قد تكفلوا لإيجاد هذه الطائفة الخاصة من الأمراء (فاجد — أمير) بالقاهرة رغبة منهم فى معارضة كل ما هو بغدادى ، وقد تكلم الرحالة بنيامين التطيلى عن هذه الوظيفة أثناء رحلته .

(آدم متز : الحضارة الاسلامية) جـ١ ، ص ٦٣) .

(٢٨) رأس الجالوت هو رئيس اليهود ولقد عرفه الخوارزمى بقوله عنه « هو رئيس اليهود وهم الجالية أعنى الذين جلوا عن أوطانهم ببيت المقدس ويكون رأس الجالوت من ولد داود عليه السلام وتزعم عامتهم أن لا يرأس حتى يكون طويل الباع تبلغ أنامل يديه ركبتيه إذا مدهما .

(الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، القاهرة ١٣٤٢هـ ، ص ٢٤) .

(٢٩) هو موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبى أصيبعة السعدى الخزرجى ، ولد فى دمشق سنة ٦٠٠هـ ، وكان والده أمهر الكاحلين (أطباء العيون) فى دمشق . عاش فى القاهرة الأيوبية والتحق فى المارستان الناصرى الذى أنشأه صلاح الدين فى القاهرة واشتهر بحسن مداواته لأمراض العيون واستخلفت نبوغه الجالس على كرسى الملك فألحقه بخدمة الدولة . توفى فى صرخد إحدى مدن جبال حوران سنة ٦٧٨هـ .

(مقدمة كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا ، بيروت ١٩٦٥) .

(٣٠) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ، ص٧٢١ .

(٣١) نفس المصدر السابق ، ص٥٨٢ .

(٣٢) أورد ابن أبى أصيبعة (ص ٥٧٩) أن من كتبه فى الطب : كتاب الارشاد لمصالح الأنفس والأجساد وهو أربع مقالات . وكتب التصريح بالمكنون فى تنقيح القانون ورسالة فى طبع الاسكندرية وحال هوائها ومياهها ونحو ذلك من أحوالها وأحوال أهلها . ومقالة فى الليمون وشرابه ومنافعه . ومقالة فى الراوند ومنافعه . ومقالة فى علاج القولنج .

(٣٣) ابن أبى أصيبعة : نفس المصدر ، ص٥٧٩ ، ٥٨٠ .

(٣٤) نفس المصدر السابق ، ص٥٨١ .

(٣٥) عيون الأنباء ، ص ٥٨٢ ، ٥٨٣ .

(٣٦) —Poul Borchsenius : The Three Rings, The History of the Spanish Jews, London 1954, p 116.

(٣٧) ولد موسى بن ميمون فى قرطبة بالأندلس سنة ١١٣٥ (٣٠ مارس) ومات فى القاهرة فى ١٣ ديسمبر ١٢٠٤ ودفن فى طبرية . عرف فى العربية باسم أبو عمران موسى بن ميمون بن عبد الله .

وكان والده قاضياً ومعلماً تعلم موسى منه التعاليم الدينية . وحين كان موسى يبلغ من العمر ثلاثة عشرة عاماً سقطت قرطبة فى يد الموحدين . واتجه خير الأمير عبد المنعم الموحدى (١١٣٠ — ١١٦٣) اليهود والمسيحيين بين الاسلام أو ترك البلاد . وكان على ميمون وأسرته أن يختاروا أحد الأمرين فاختاروا الرحيل عن الأندلس . وفى سنة ١١٦٥ استقروا فى فاس لكن الأسرة هجرت فاس بعد استقرار دام خمس سنوات بها وركبت البحر مهجرة إلى فلسطين فوصلت عكا ثم بيت المقدس . وبسبب الاضطهاد الصليبى الذى كان يسود فلسطين ارتحلت الأسرة إلى الاسكندرية وأخيراً استقرت فى الفسطاط .

ومات والده بعد استقراره فى مصر بشهرين (١١٦٦م)؛ فقام أخوه الأكبر داود برعايته والعائلة . لكن داود غرق وبضاعته فى البحر مع مركب كان يتاجر عليها فاضطر موسى لذلك أن يعمل ليكسب قوته فاحترف مهنة الطب وكان قد اكتسب معرفة هائلة بشئون الحياة وفى شتى العلوم أثناء تجواله وخاصة فى علم الطب .

(The Jewish Encyclopedia, V. IX, London 1916, p. 73.)

(٣٨) يقول ابن أبى أصيبعة (ص ٥٨٢) أن الرئيس موسى كان قد أسلم فى المغرب وحفظ القرآن واشتغل بالفقه ثم لما توجه إلى الديار المصرية وأقام بفسطاط مصر ارتد . وأيده القفطى فى ذلك (القفطى : تاريخ الحكماء ، ليبزج ١٩٠٣ ، ص٣١٨) .

(٣٩) —The Jewish Encyclopedia, IX, p. 74.

(٤٠) —Simon Dubnov : Op. Cit., p. 819.

(٤١) كان موسى بن ميمون أيضاً وكيلا لتجار اليهود فى تجارة الشرق وكان يطلق عليه لقب أمير بلاد اليمن .

Goitein : Letters and Documents on the India Trade in Medieval Times, [Islamic Culture, London 1963, vol 37, no. I. p. 188].

(٤٢) حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى ، أطواره ومذاهبه ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١٠٤ .

(٤٣) —Poul ; Op. Cit., p. 125.

(٤٤) —Poul : Op. Cit, p. 133.

(٤٥) القفطى : أخبار الحكماء ، ص ٧٩ .

(٤٦) حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص١٥٨—١٦٣ .

(٤٧) —Simon Dubnov : Op. Cit, p. 819.

(٤٨) نقل المؤرخ الطبيب ابن أبى أصيبعة عن الرحالة عبد اللطيف البغدادى فى ترجمته لحياته على لسانه مانصه : أنه سافر إلى مصر فى أواخر أيام السلطان صلاح الدين وأن البغدادى قال ضمن من قابلهم من الأفاضل الرئيس موسى بن ميمون الذى قال عنه ما نصه :

« جاءنى موسى فوجدته فاضلا فى الغاية قد غلب عليه حب الرياسة وخدم أرباب الدنيا وعمل كتاباً فى الطب جمعه من الستة عشر لجالينوس ومن خمسة كتب أخرى وعمل كتاباً لليهود سماه كتاب الدلالة » .

[عبد اللطيف البغدادى : الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر ، القاهرة ١٩٤٣ ، الترجمة الخاصة بالمؤلف والملحقة بالكتاب عن المؤرخ ابن أبى أصيبعة ، صفحات هـ،و] .

(٤٩) —Simon Dubnov : Op. Cit., p. 820.

(٥٠) —Poul. Op. Cit., p. 134.

(٥١) القفطى : أخبار الحكماء ، ص ٣١٩

(٥٢) —Jewish Encyclopedia, IX, p. 80.

(٥٣) —Goitein : Jews and Arabs, p. 182.

(٥٤) كان إبراهيم معاصراً للطبيب المؤرخ ابن أبى أصيبعة ، فلقد أشار ابن أبى أصيبعة فى كتابه (ص ٥٨٣) أنه التقى فى سنة ٦٣٠ أو ٦٣٢ هـ بابراهيم فى بيمارستان القاهرة وأنه وجده شيخاً طويلا نحيف الجسم حسن العشرة لطيف الكلام متميز فى الطب وذكر أنه توفى بمصر فى الثلاثينات من سنة ستمائة .